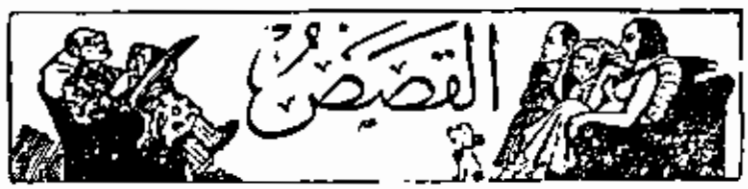

انهيار جـــدار

مترجمة عن الانجليزية

بقلم الآنسة سلوى الحوماني

كان ذات يوم من أيام نوار الضاحكة وقد أشرقت الطبيعة بابتسامة الربيع ، فرفلت الحقول بحلته الزمردية المزركشة ، وعبق الجو بأنفاس الزهور العطرة . وانطلقت الطيور صادحة تبثى أعشاشها على أفنان الشجر وبين العشب النامى فى مرتفعات الأرض التى بدت بأنحدارانها كستائر من السحر أو كلوحات فنية هى أروع ما أبدعت يد عبقرى .

فى ذلك اليوم المشرق ، وفى حقول قرية « هاڤرتون » ، كانت « جيزيا أتوين » القروية الحسناء تتجدو مسرعة إلى تلك القرية وقد حملت سلة بيضٍ توصلها إلى السيدة « برسكلوف » العجوز كهدية من إنتاج طيورها التى تفننت فى تربيتها فى مزرعة أبيها الموسر .

كانت جيزيا تبدو آية من آيات الفن بثوبها الأزرق البديع التنسق بقدها السمهرى زهو وخيلاء ، وقبعتها الباريسية الأنيقة التى علت رأسها الجميل تحاكى زهور الأرض روعة وجمالاً . فكأنما كانت تلك القروية مرآة للربيع النضر الزاخر بالحياة ، فضاقت من ثراء أبيها حلل الأناقة والفن يعينها على ذلك ذوقها السليم وجمالها الفتان .

كان جمالها حديث أهل القرية ومطمح عيون الشبان فيها ومعقد آمالهم ، فتسابقوا عليها يطرحون بين يديها قلوبهم وهجيجهم . فلم يرض واحد منهم طموحها ، فضاقت بهم ذرعاً وطفى بها غرورها فراحت تسخر منهم وتهزأ بعواطفهم المحمومة ثم بالغت فى القسوة حتى لم تتورع عن صب وعاء من الماء البارد على رأس هائم جاء يشكو إليها لواعج قلبه فلم ترقها لشكته ولهجته الحمقاء . وبعد أن استرد روعه من تأثير الماء طردته بلطف وهى تربت على كتفه باسمة وتقول بهزء : ظننتك محموماً فهذى يا عزيزى فأسعفتك بالماء البارد .

وكذلك قصتها مع « ريف بارامور » زميلها فى الدراسة ورفيق صباها الذى قطعت معه مرحلة الطفولة العابثة المرحة فلعبا الحلجة وقتشا أعشاش العصافير وكنتا معاً فى حقول القرية يمثلان لعبة « الاستخفاء » حتى إذا داعب الشباب قلبيهما بنسمات الحب ، تطلعت الفتاة حولها حيرى ، وسعى الشاب إليها يطرح بين يديها قلبه وماله ومستقبله . فصدمت بمنظره المتخاذل الذليل ، وكلماته المترددة المتلعثمة ، ولهجته البلهاء المهالكة ، فطردته شر طردة هازئة ساخرة .

ولكن هذه المعاملة لم تزد الفتى إلا حباً وهياماً . بل أن هذا الحب ظل يضطرم ويشب مع الأيام كلما ازدادت الفتاة حياله برودا ونفوراً .

ولتعد الآن إلى جيزيا وهى تقطع تلك الحقول مسرعة إلى قرية هاڤرتون . ووقفت فى منعطف يؤدى إلى الطريق العام تفكر فى أى الطريقين أقصر إلى القرية . فرأت أنها إذا اتبعت الطريق العام فسيكون عليها أن تقطع مسافة ميلين لتصل إلى بيت السيدة برسكلوف فى تلك القرية . ولكن إذا اختصرت فسلكت هذا الحقل الوعر الذى ستعترضها فيه انحدارات خطرة وكثير من النباتات المتشابكة وسقوف من الحيطان المتزحلقة الواهية البناء ، بذلك تستطيع أن تصل إلى القرية فى أقل من ربع ساعة .

قالت : هـذه حقول ريف بارامور ، وأعتقد أنه ليس فيها اليوم فـأغامر وأقطعها لأنى متضايقة من الحر فلا أستطيع المشى طويلاً فى الطريق العام .

ووضعت السلة من يدها وجعلت تزحف بين النباتات البرية النامية وخلال الأغصان المتشابكة حتى كانت بعد دقائق على ضفة جدول كبير تجتازها بحذر وتماسك لئلا تزل قدمها وتقع فيه . ووصلت إلى رأس منبسط حيث يتفجر من خلال كومة من حجارة رملية فتسلقتها بخفة وقفزت إلى حقل قمح منبسط انطلقت تمشى فيه براحة واطمئنان يضمرها النبات المتطاول ، حتى رأت أمامها حائطاً طالياً يعترض طريقها .

كان هذا الحائط صعب التسلق لضعف بنائه وتداعي حجارته . ولكن هذا لم يثبط من عزمها ولم يضعف همتها وهي الفتية النشيطة ، فلم تجفل أمامه ولم تحجم عن اقتحامه . فوضعت سلة البيض على حجر ثابت فيه ، وبدأت تصعد بخفة ونشاط . ولكن راعها أن رأت خطر الصعود أشد مما كانت تتصور . فكانت تتوه حجارة الكلس تتفتت تحت قدميها حتى كادت تهوى إلى الأرض لولا جهد المستميت .

وكادت أن تصل أعلى الحائط عندما هلع قلبها وهي تراه قد بدأ يميد بها ويهتز تحت ثقلها فما أحست إلا وهي ترى بنفسها إلى الأرض وقد انهار من ورائها .

ونهضت مذعورة فزعة ، ولكن سرعان ما زال خوفها وانبسطت أساريرها ولمعت عيناها بخبث وهي تنظر إلى الجدار المنهار ثم قالت بحقد وتشف : أنه سيكون شغلاً مناسباً لريف الأبله أن يعيد بناءه ، ولصوف أهدمه ثانية وثالثة ، أيضاً كلما بناه ، فالتعب هو أنجع دواء للحمق الماثلين أمثاله .

ولدى آخر كلمة قالتها إذا بعينيها تتسع ذعراً وتند عنها صيحة مكبوتة عندما حانت منها التفاتة فرأت من ورائها تماماً ريف بارامور .

لقد كان ريف بعينه جالساً إلى جذع شجرة منهمكاً في صنع أوتاد خشبية . وكان ينظر إليها وعلى فمه ابتسامة الظفر .

فأسرعت جيزيا واختطفت سلة البيض وركضت هاربة . ولكن ريف قفز وراءها يتبعها بخطوات واسعة ويقول: لقد سمعت كل ما قلت يا جيزيا ، ولا أظن أنك بهذا العمل على شيء من النبل أو العطف ، ولكن على أي حال فأنت تمرنين العادة في قريتنا التي تحتم على من يهدم جداراً أن يبنيه بنفسه ، لذلك فأنت الآن يجب أن تبنيه كما هدمته .

فوقفت جيزيا تنظر إليه بازدراء وتتحداه قائلة: كلا لا أريد أن أبنيه

فقال ريف بهكم : ولكنك ستبنينه لأني سأجبرك على ذلك.

فقاض لونها وقالت : إن سخرية الاقدار أن تكون أنت أول رجل يجبرني على عمل لم يخطر لي على بال . تنح جانباً ودعني أذهب .

قال كلا لن أفعل ، فأنت معتدية ، والمعتدي يجب أن يدان ، وأنا الذي سأدينك بأكراهك على بناء الحائط بنفسك .

فقالت بصوت مختنق : إذا فعلت هذا فسأملأ الدنيا صراخاً.

فقال بتهكم : إصرخي ما شئت فلن يسمع صراخك في هذا الحقل النائي أحد غيري .

فلم تجبه جيزيا بدأ من التنازل عن كبريائها فقالت بلهجة المتوسل : ليس من النبل والرجولة في شيء أن تجبر فتاة مثلي على هذا العمل الشاق يا ريف ، أما لم أحنث لبناء الجدران .

وكأن لهجتها الرقيقة هذه قد حركت أوتار قلب ريف ، فتبدلت ملامح وجهه فجأة وجعل يتفرس فيها برهة ثم قال : إن بناءك للحائط سيكون لك درساً في إذلال كبريائك كما أذللت كبريائي من قبل بطردي من بيتك ، أتذكرين . ؟ والآن هيا اشرعي في البناء .

فراعها أن لا تخفف توسلاتها من عناده شيئاً . ولأول مرة في هذه المناقشة رفعت رأسها إليه تتأمله بأمعان . فتصنع هو الصرامة والعبوس . وتقلصت عضلات وجهها إشمئزازاً من خلقته . يالله ما أغلظ هذا المخلوق الواقف أمامها بوجهه الكالح المكفهر وقامته المتخاذلة وثيابه المشعثة التي تتصبب عرقاً ! إن ظنها لم يخب في أنه أبشع رجل في العالم ، وأقسى رجل أيضاً . ما أقسى هذا الجنس وأظلمه ، لقد اقتنعت الآن فقط أن الرجال أفظع المخلوقات وأنه لا يوجد واحد منهم جدير باسم رجل .

وأحست بأن أعصابها تكاد تنفجر غيظاً فاشاحت بوجهها عنه حانقة ، ولمعت عيناها حقداً ، وارتجفت شفتاها في ثورة مكبوتة . ودمدمت بحدة قائلة : إنني أمقتك يا هذا ، أنت تريد أن تقضي على بهذا العمل ، فأنا لست رجلاً حتى أستطيع بناء الحائط .

فانفجر ريف ضاحكاً وقال : إنك تجورين على بهذه التهمة يا جيزيا . فما أردت بإجبارك على بناء الحائط إلا تلقينك درساً عملياً في احترام كبرياء الغير كما أخبرتك الآن . أما وأنت تصرين على الاعتقاد بأن هذا العمل سيقتلك حقاً ، فأنا لا أريد أن أحمل ضميري وزر قتلك . لذلك فإني سأساعدك في بنائه ، سأجنبك المهمة الشاقة فيه فأجمع الحجارة الكبيرة الثقيلة وأنت عليك جمع الصغير منها .

فلم تجب جيزيا بكلمة ، ولكنها جعلت تنزع قفازها الأنيق بألم وقنوط ثم بدأت تشتغل بتثاقل وصمت والدموع تترقرق في مقلتيها.

وابتسم ريف بخبث وهو يرى عملها البطيء وأحجارها التي

لا يزيد أحدها عن حجم التفاحة .

واستمرا يشتغلان دون أن يبس أحدهما ببنت شفة حتى تم بناء صفين من الحجارة وكان الوقت قد صار ظهراً فقال ريف : يظهر أن بناء الحائط سيستغرق معنا يوماً كاملاً ، والآن قد حل وقت الغداء فهيا إلى ظل الشجرة لنتغدى مما جاءت أحضرته من خبز وجبن .

فقالت هامسة في استنكار : أتتغدى معك تحت الشجرة . ؟ ولكن ماذا يقول الناس عني إذا عرفوا . ؟ بربك أعفني من هذا . فأجابها وقد عاد إلى تقطيبه : بل يجب أن نتغدى معاً فسوف لا أغير أحداً بذلك .

ورأت جيزيا نفسها مجبرة على طاعته فانقادت له مسافرة . ولم تستطع ازدراد الطعام لانفعالها ، وأحست به يلتصق بحنجرتها فقامت متظاهرة بالشبع تبغي العودة لعملها .

ولكن ريف استبقاها إلى جانبه قائلاً : أنا معتاد أن أدخن غليوناً بعد الوجبات . دعينا نستعيد ذكريات الطفولة في هذه الأثناء . أتذكرين عندما كنت أتسلق أعالي الأشجار لأجلب لك العصافير من أعشاشها . .؟

فنفضته جيزيا بنظرة حانقة لهذا الأسلوب الكريه الذي يحاول أن يستميلها به ثم مشت عائدة إلى عملها دون أن تنبس بكلمة .

ولاحظ عليها ريف أنها نشطت في عملها عما قبل ، فراحت تسرع في جمع الحجارة قلقة وجلة كلما انحدرت الشمس نحو المغيب . فقابل هو إسراعها ووجلها بالبرود والبطء في عمله دون رحمة أو شفقة . حتى إذا ما قارب النهار الزوال ، ورأت الحائط لم يتم منه النصف ، نظرت حولها جزعة ، ثم ارتمت على الأرض تبكي بحرارة .

وفوجيء ريف ببكائها الذي لم يكن يتوقعه منها وهي العنيدة الصلبة . فشعر بخطئه في تلك المعاملة القاسية لها فتألم واضطرب خوفاً من سوء العاقبة . وقال يخاطبها برقة : جيزيا ما بك . ؟ أعتقد أنني أتعبتك كثيراً . في وسعك أن تذهبي الآن وأتمم أنا كل بناء الجدار وحدي .

ولشد ما كانت دهشته عندما رآها تهب واقفة قبل ان يتم كلامه وتمسح دموعها بسرعة وتعود إلى عملها نشيطة في جمع الأحجار أكثر مما كانت عليه . فردد في نفسه : يا لهذه الفتاة الصلبة ! إن كبرياءها لم تتحطم بعد ، فهي تأبى مظاهر الضعف والذل في بكائها الذي استدر عطفي .

وأحس بالشفقة نحوها ، فراح يساعدها بهمة لا تعرف الكلل حتى تم بناء الحائط بعد ساعتين .

عندئذ أسرعت جيزيا وقبل أن تلتقط أنفاسها ، إختطفت سلتها بحركة عصبية وراحت مهرولة في طريقها إلى القرية . كانت صامتة واجمة شاحبة الوجه تقتفي طريقها الشائك مستجمعة قواها المحطمة .

وشعر ريف بالندم وهو يراها في هذه الحال المؤلمة ، وأنبه ضميره بشدة وعصر قلبه الألم فأسرع وراءها يصيح معتذراً : جيزيا إني أسألك المعذرة .

فوقفت جيزيا ووضعت سلتها على الأرض وبسطت أمامه يديها تقلبهما لتريه أصابعها الدامية وبشرتها التي شوهها العمل وملأها بالخدوش والجروح .

فاغرورقت عينا ريف بالدموع وقال : يا فتاتي المسكينة هلا سفحت عني . .؟

وكان لهجته الرقيقة المتوسلة قد لامست أوتار قلبها فحت منه كل حقد واستياء وتبينت فيه الإعياء الشديد . فنظرت إلى وجهه المكدود وجسمه المرهق من عناء العمل فشمرت بخطئها في هدم الحائط وخلق هذه المتاعب لهذا الرجل البريء . فنظرت إليه بعطف وقالت متلعثمة : وأنت أيضاً تعبت مثلي في بناء الحائط ياريف ، وأنا كنت السبب ولكن أعدك بأني لن أهدم لك حائطك بعد . فاقترب منها ريف وأمسك بذراعها قائلا برقة : ما كنت لأضطرك لبناء الحائط لولا حبي لك يا جيزيا . إنها فرصة خلقتها للتمتع بقربك يا حبيبتي بعد طول نفورك .

وحركت مشاعر جيزيا لهجة ريف العذبة ، واستهوتها غايته تلك . استهواها هذا الحب المحموم وهذه العاطفة الجياشة حيالها . ورأت تلك الشخصية الضعيفة المتخاذلة وتلك اللهجة المترددة المائعة حين باح لها بحبه أول مرة فاستثار نقمتها حتى طردته ، رأت الآن كل هذا يتوارى خلف هذه اللهجة العذبة ممتزجة بهذه الشخصية القوية الجبارة التي فرضت عليها طاعته وأرغمتها على الخضوع لرغبته . رأت كل هذا فأحست بأن هذه الشخصية القوية الرقيقة ، الناعمة الخشنة ، القاسية الليئة قد ملكت قلبها . فأغمضت عينيها نشوى ثم مالت عليه تدفن رأسها في صدره هامسة : لقد بدأت أحبك يا ريف .

فطبع ريف على فمها قبلة فاتحة عهد جديد .

سامي الدروبي